آري شافيت (*)

اللد ١٩٤٨: المدينة، المجزرة والشرق الأوسط اليوم

تعمّ الاضطرابات الداخلية منطقة الشرق الأوسط اليوم، وبات الربيع العربي مجرد ذكرى، وتشكل سوريا الآن كابوسًا سرياليًا. ومع ذلك، تشهد المنطقة في هذه الآونة محاولة جديدة تتعهدها إدارة أوباما من أجل تحقيق السلام بين إسرائيل والفلسطينيين. فهل يكون النجاح من نصيب هذا المسعى الجديد في ضوء فشل المساعي التي سبقته؟ من الممكن العثور على إجابة لهذا السؤال في تاريخ اللد، وهي مدينة فلسطينية صغيرة تقع إلى الشرق من مدينة تل أبيب وإلى الغرب من مدينتيّ رام الله والقدس – التي تشكل لبّ النزاع العربي- الإسرائيلي. وينبغي لكل طرف يسعى إلى تحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط أن يعترف بالمأساة التي حلت بمدينة اللد وأن يستوعب المضامين والدلالات التي تنطوي عليها.

في العام ١٩٠٥، أي بعد عامين من وصول الحركة الصهيونية إلى وادي اللد، أقام مقاول يهودي روسي معملًا لصناعة الصابون من زيت الزيتون بالقرب من المدينة. وقد أُطلق على هذا المصنع فيما بعد اسم "عتيد" (وهي كلمة عبرية تعني "المستقبل"). وبعد ذلك بفترة قصيرة، أنشأ مدرس صهيوني مشهور مأوى للأيتام على المنحدر القريب من هذا المصنع. وخُصص هذا المأوى، الذي سُمّي "كريات سيفر"، للأيتام الذين نجوا من المجزرة التي شهدتها مدينة كيشينيف في بيسارابيا. وفي العام ١٩٠٨، عمل أعضاء الحركة الصهيونية على زراعة حقول الزيتون في غابة هيرتسل (Herzl Wald) من أجل تخليد ذكرى مؤسسها، وهو ثيودور هيرتسل (Theodor Herzl). وعلى مدى العامين التاليين، أقام الصهاينة مستعمرة صناعية ومزرعة تجريبية. وكان الفشل

(*) صحافي إسرائيلي من أسرة تحرير «هآرتس». هذا المقال نشر في مجلة «نيو يوركر» الأميركية، عدد ٢١ تشرين الأول ٢٠١٣.

صورة نادرة للد والرملة قبل تطهيرهما عرقيا.

من نصيب جميع هذه المشاريع، باستثناء مشروع واحد – وهو مشروع "بِن شيمين" (Ben Shemen)، وهو عبارة عن "قرية شبابية" أسسها طبيب اسمه سيغفرايد ليهمان (Siegfried Lehmann).

وُلد ليهمان في برلين في العام ١٨٩٢. ودرس الطب، ثم خدم في الجيش الألماني كطبيب فيه. وعلى الرغم من أنه كان ينحدر من أسرة ثرية من اليهود الألمان الذين اندمجوا في المجتمع الألماني، فقد أعاد ليهمان اكتشاف هويته اليهودية في أثناء الحرب العالمية الاولى، ووجد المغزى الذي كان يصبو إليه في المحاولة التي بُذلت لبعث الحياة في اليهودية. وأنشأ ليهمان، في العام ١٩١٦، مركزًا للأطفال اليهود المشردين في أحد الأحياء الفقيرة في شرقيّ برلين، وافتتح في العام ١٩١٩ مأوى للأطفال الأيتام اليهود الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم في الحرب في مدينة كوفنا (Kovna) في ليتوانيا. وكان ليهمان، الذي وجد في أفكار مارتين بوبر (Martin Buber) وألبرت أينشتاين (Albert Einstein) مصدر إلهام له، يؤمن بأنه لم يكن لليهود مستقبل في ألمانيا، وأنه كان يتعين على اليهود الغربيين أن يعيدوا التواصل مع التقاليد والطقوس التي كان اليهود الشرقيون يتبعونها.

وبحلول العام ١٩٢٥، أدرك ليهمان بأن الموجة المتصاعدة المعادية للسامية سوف تحول بينه وبين الإبقاء على مأوى الأطفال الذي كان يديره في كوفنا، وقرر بأنه ليس أمامه من مكان يتوجه إليه سوى فلسطين. وفي أحد الأيام الماطرة في شهر كانون الثاني من العام ١٩٢٧، وصل ليهمان مع زوجته ومجموعة من الأطفال الأيتام الذين كان يؤويهم من كوفنا إلى الفناء الذي كان قد شُيِّد في وادي اللد قبل عشرين عامًا تقريبًا لإيواء الأيتام الذين جاؤوا من كيشينيف.

وفي العام ١٩٤٦، كانت المؤسسة التعليمية التي أنشأها ليهمان تضم ما يزيد على خمسمئة طالب وطالبة. وقد شُيدت المهاجع في مبانٍ طويلة ذات سقوف حمراء على المنحدر السهل الذي يمتد من فناء "كريات سيفر" حتى أنقاض مصنع الصابون. كما شيد القائمون على هذه المؤسسة مدرسة في هذه المنطقة وحفروا فيها بركة سباحة وزرعوا حدائق الورود. وكان الطلبة يربون الدواجن والأبقار والأغنام والخيول، كما كانوا يعتنون ببيارة برتقال وحديقة لزراعة الخضروات وحقول القمح وخلايا النحل وكرم عنب. لقد طوّر ليهمان أحد أهم المواقع التي احتفت برواد الصهيونية الأوائل في وادي اللد.

لم يكن ليهمان صهيونيًا يتسم بقصر النظر. فعلى الرغم من أنه كرس حياته لرعاية الأطفال اليهود المشردين، فقد كان ينظر إلى مهمته الإنسانية ضمن سياق تاريخي أعم وأشمل. فقد كان يؤمن بأن النزوح والانفصال عن الأهل لم يكونا من المصائب التي حلت باليهود وحدهم ودون غيرهم في القرن العشرين. وقد أراد من الحركة الصهيونية أن تجترح علاجًا للشعب اليهودي الحديث وللإنسان الحديث معًا، كما أراد من هذه الحركة أن تنفذ المهمة القومية الملحّة على نحو يعود بالفائدة على جميع أبناء الأسرة البشرية. ومن وجهة نظر ليهمان، ينبغي للصهيونية أن تشكّل حركة من حركات التسوية التي لا تلطخها الكولونيالية أو الشوفينية، وأن تكون حركة تقدمية لا يشوهها الاغتراب الحضري. وفضلًا عن ذلك، كان ليهمان يؤمن بأنه لا ينبغي للحركة الصهيونية أن تؤسس مستعمرة منغلقة تستعطف الآخرين في فلسطين، بحيث تتجاهل محيطها وجيرانها العرب، ولا يجب في الحركة الصهيونية أن تشكل قلعة غربية رائدة تتولى قيادة الشرق. بل على النقيض من ذلك، يتعين على الصهيونية أن تزرع اليهود في وطنهم العتيق بطريقة أو بأخرى وعلى نحو عضوي، بحيث تشكل جسرًا بين الشرق والغرب. وعلى الرغم من أن ليهمان لم يكن يقول ذلك علانية، فقد كان ينظر إلى القرية الشبابية التي أقامها في وادي اللد باعتبارها مثالًا على ما يجب أن تكون عليه الحركة الصهيونية: بمعنى أن تكون مكانًا يوفر المأوى للمشردين، ويرسخ جذور من اقتُلعوا من أوطانهم فيه ويستعيد معنى الحياة. وفي هذا السياق، فمن شأن قرية "بن شيمين" أن توفر الوئام والانسجام للأطفال فيها وأن توفره كذلك لفترة تفتقر إلى جميع أشكال الوئام والانسجام.

وبعد ستة أشهر من إنشاء القرية الشبابية على يد ليهمان، ضرب زلزال البلدة القديمة في مدينة اللد وتسبب في مقتل العشرات من سكانها. فسارع ليهمان إلى المدينة كي يقدم

مدرسة «بن شيمين».

العناية والرعاية للناجين من هذا الزلزال. وقد ترك عمله أثراً عميقًا، حيث أقام على مدى السنوات التالية علاقات الصداقة مع سكان مدينة اللد من الفلسطينيين ومع وجهاء القرى العربية المجاورة ومخاتيرها، وهي قرى الحديثة، وخربة الضهيرية، وجمزو، ودانيال ودير طريف وبيت نبالا. ومما لفت نظر ليهمان أن أبناء هذه القرى كانوا يتنقلون بين قراهم ومدينة اللد في حر الصيف القائظ، فشيد لهم نافورة يشربون الماء البارد منها ويفيئون إلى ظلها ويستريحون فيه بالقرب من بوابة قرية الشباب الصهيونية. كما أصدر ليهمان تعليماته إلى العيادات المحلية لكي تقدم المساعدة الطبية للفلسطينيين الذين كانوا يحتاجون إليها. وأصر على تعليم الطلبة الذين كانوا يدرسون في "بن شيمين"، والذين كانت تتراوح أعمارهم من عشر إلى ثماني عشرة سنة، على احترام جيرانهم. وفي كل نهاية أسبوع تقريبًا، كان الطلبة يخرجون في رحلات إلى تلك القرى، كما كانوا يترددون على زيارة المدارس والسوق في مدينة اللد. وكان ليهمان يوجه الدعوات إلى الفرق الموسيقية وفرق الدبكة العربية للمشاركة في الاحتفالات التي كانت تُقام في القرية الشبابية.

وفي العام ١٩٤٧، أي قبل عام واحد من إقامة دولة إسرائيل، طلب ليهمان من المخرج هيلمر ليرسكي (Helmer Lerski) أن يصور فيلمًا عن فتى صغير، وهو أحد الناجين من المحرقة (الهولوكوست)، والذي وصل من أوروبا ووجد حياته وغايته في قرية "بن شيمين". وافق ليرسكي على طلب ليهمان، وسمى الفيلم "أداما" ("الأرض"). وقد وظف ليهمان هذا الفيلم كأداة لجمع التبرعات، حيث كان يصور مجتمعًا رعويًا كان من المستحيل إقامته لولا الجهود التي بُذلت في ذلك. فالفتيان والفتيات الذين بالكاد تمكنوا من الهرب من أوروبا يعيشون الآن في مؤسسة تقدمية وديمقراطية كانت عبارة عن وطن وفّر النقاهة للشباب، الذين اقتُلعوا من أوطانهم وكانوا ينتمون إلى شعب سبق أن اقتُلع من وطنه، في أرض التوراة. فهنا كان الرعاة اليهود الشباب يرعون الأغنام على التلال العتيقة الوعرة بين قريتيّ الحديثة وخربة الضهيرية. وهنا كانت الشابات يغزلن الخيوط على المغازل كما لو كنّ فتيات فلاحات فرنسيات أو ألمانيات يعشن على هذه

الأرض على مدى أجيال متعاقبة. وهنا كان مجتمع من الأطفال الأيتام الذين يحيون في ظل ثقافة تزخر بها القرى الأوروبية- الفلسطينية وتعيش في سلام مع الأرض التي حلوا واستقروا فيها. وفي أمسيات أيام الجمعة، كان الأطفال يرتدون القمصان البيضاء ويجتمعون حول الموائد من أجل إضاءة الشموع. وكان بعض هؤلاء الأطفال يعزفون موسيقى باخ (Bach)، وبعضهم يغني الترنيمات، وبعضهم يسرد حكايات الأساطير اليهودية أو قصص تولستوي.

ولكن بمجرد أن أنهى ليرسكي تصوير هذا الفيلم، طفا على السطح توتر دفين كان قائمًا بين الحركة الصهيونية التي كانت تتعهد مشروع وادي اللد ومدينة اللد الفلسطينية. ففي شهر شباط ١٩٤٧، قرر البريطانيون الجلاء عن الأرض المقدسة وترك الأمر لهيئة الأمم المتحدة لكي تقرر مصيرها. وفي شهر حزيران من ذلك العام، وصلت لجنة تتألف من أحد عشر عضوًا من الأمم المتحدة إلى فلسطين. وزارت هذه اللجنة قرية "بن شيمين" في وادي اللد في أثناء جولتها التي شملت جميع أنحاء البلاد. ووصل أعضاء هذه اللجنة إلى نتيجة مفادها أنه لم يكن هناك من فرصة تتيح لليهود والعرب في فلسطين أن يتعايشوا كشعب واحد، وأوصوا بتقسيم أرض فلسطين إلى دولتين. وفي شهر تشرين الثاني من العام نفسه، صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قرار التقسيم، ودعت الجمعية في القرار (١٨١) إلى إقامة دولتين، دولة يهودية ودولة عربية. ولم تُبدِ جامعة الدول العربية ولا العرب الفلسطينيون الاستعداد لقبول السيادة اليهودية على أي بقعة من أرض فلسطين ورفضوا هذا القرار.

وفي شهر كانون الأول ١٩٤٧، هاجم المقاتلون العرب موكبًا يتألف من سبع سيارات كانت تُقلّ جنودًا يهودًا من أفراد "الهغناه"، التي شكّلت نواة قوات الدفاع الإسرائيلية فيما بعد، وهو في طريقه إلى قرية "بن شيمين". وقد قُتل ثلاثة عشر جنديًا في هذه الموقعة. وبعد هذه الحادثة بأشهر قليلة، تم إخلاء معظم سكان القرية الشبابية من وادي اللد في الحافلات التي رافقتها مدرعات بريطانية. وبحلول شهر نيسان ١٩٤٨، تحولت القرية الشبابية التي أنشأها ليهمان إلى نقطة عسكرية.

وفي شهر أيار ١٩٤٨، غزت جيوش مصر وسورية وإمارة شرق الأردن والعراق ولبنان فلسطين، وعقدت هذه الجيوش العزم على سحق الدولة اليهودية الوليدة حينئذ. وفي مطلع شهر تموز، أصدر دافيد بن- غوريون، أول رئيس وزراء في دولة إسرائيل، أوامره بإطلاق عملية "لارلار" (Operation Larlar) التي استهدفت احتلال اللد والرملة واللطرون ورام الله. وفي يوميّ ١٠ و١١ تموز، استولى اللواء الثامن في قوات الدفاع الإسرائيلية على الأجزاء الشمالية من وادي اللد، بما في ذلك قريتا دير طريف والحديثة، بالإضافة إلى المطار الدولي الذي كان يقع على مقربة من تل أبيب. واستولى لواء النخبة "يفتاح" (Yiftach Brigade) على الأجزاء الجنوبية من المدينة، بما فيها قرى عنابة وجمزو ودانيال وخربة الضهيرية. وفي غضون أربع وعشرين ساعة، تم احتلال جميع القرى التي أحبها د. ليهمان وعلّم فيها تلاميذه احترام سكانها. وفضلًا عن ذلك، كانت قوات الدفاع الإسرائيلية تعد العدة للاستيلاء على مدينة اللد نفسها بعدما أحكمت قبضتها على وادي اللد من الجهات الجنوبية والشرقية والشمالية.

وتقدم في يوم ١١ تموز من العام نفسه، فصيلان من الكتيبة الثالثة من قرية دانيال المحتلة نحو حقول الزيتون التي تفصل قرية "بن شيمين" عن مدينة اللد. وقد عملت الميليشيا العربية التي كانت تدافع عن المدينة آنذاك على عرقلة تقدُّم هذين الفصيلين بإطلاق نيران الأسلحة الرشاشة عليها. وفي هذه الأثناء، كانت الكتيبة ٨٩، التي كان موشيه دايان يقودها، قد وصلت إلى "بن شيمين". وبعد ظهر ذلك اليوم، غادرت الكتيبة، التي كانت تتألف من عربة مصفحة ضخمة مزودة بمدفع ومدرعات نصف مجنزرة وجيبات مزودة بالبنادق الرشاشة، قرية "بن شيمين" واقتحمت مدينة اللد. وفي حرب خاطفة لم تزد على سبع وأربعين دقيقة، قُتل العشرات من العرب، بمن فيهم النساء والأطفال وكبار السن. وفي المقابل، فقدت الكتيبة ٨٩ تسعة من جنودها. وفي مستهل مساء هذا اليوم، تمكن الفصيلان التابعان للكتيبة الثالثة من دخول المدينة. وفي غضون ساعات، استولى الجنود على المواقع الرئيسة فيها واحتجزوا الآلاف من المدنيين الفلسطينيين داخل جامعها الكبير.

وحسبما جاء في كتاب "١٩٤٨" لبِني موريس (Benny Morris, 1948)، دخلت مدرعتان أردنيتان المدينة في اليوم التالي لاحتلالها، مما تسبب في اندلاع موجة جديدة من العنف. وكان الجيش الأردني يتمركز على بعد أميال شرق المدينة. وفي الواقع، لم يكن للمدرعتين المذكورتين أي أهمية عسكرية، ولكن بعض المواطنين العرب من سكان مدينة اللد اعتقدوا أنهما كانتا من جملة الطلائع التي قدِمت إلى المدينة من أجل تحريرها. وقد ساور الخوف جنود الكتيبة الثالثة، حيث شعروا بأنهم في خطر وشيك من الهجوم الأردني. وفي هذه الأثناء، أطلق بعض الفلسطينيين النار على الجنود الإسرائيليين بالقرب من مسجد صغير في المدينة. وكان من بين المحاربين الشباب الذين كانوا

> تمثل مدينة اللد الصندوق الأسود للحركة الصهيونية. وفي الحقيقة، لم تستطع الحركة الصهيونية أن تتحمل وجود مدينة اللد العربية. فمنذ البداية، ساد تناقض جوهري بين الحركة الصهيونية ومدينة اللد. فإذا كان لهذه الحركة أن تبقى على قيد الوجود، لم يكن لمدينة اللد أن تبقى قائمة. وإذا كان لمدينة اللد أن تبقى موجودة، فلم يكن للحركة الصهيونية وجود معها. وهذا الأمر واضح تمامًا إذا ما أعدنا النظر في أحداث الماضي. فعندما وصل سيغفرايد ليهمان إلى وادي اللد في العام ١٩٢٧، كان يتعين عليه أن يرى أنه إذا كان لدولة يهودية أن تقوم لها قائمة في فلسطين، فكان لا يمكن أن توجد مدينة اللد العربية في مركزها. وكان عليه أن يدرك أن اللد كانت تشكل عقبة تسد الطريق أمام قيام دولة يهودية، وأنه كان من الواجب على الحركة الصهيونية أن تزيلها في يوم من الأيام.

يحتمون في خندق قريب خريجون من مؤسسة "بن شيمين"، الذين باتوا يقاتلون في صفوف قوات الدفاع الإسرائيلية. وكان قائد اللواء أحد الطلبة الذين تخرجوا من "بن شيمين" أيضًا، وقد أصدر هذا القائد الأمر بالرد بإطلاق النار. وألقى بعض الجنود القنابل اليدوية داخل البيوت العربية. وأطلق أحدهم قذيفة مضادة للدروع باتجاه المسجد. وفي غضون ٣٠ دقيقة، قتل هؤلاء الجنود مئتين وخمسين فلسطينيًا. لقد اقترفت الحركة الصهيونية مجزرة في مدينة اللد.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مقر قيادة عملية "لارلار"، الذي كان يقع في قرية يازور الفلسطينية، سأل القائد العسكري الجنرال يغئال ألون بن- غوريون عما يفعله مع العرب. فلوّح بن- غوريون بيده: أبعدوهم. وبعد ذلك بساعات، أصدر إسحق رابين، ضابط العمليات حينئذ، أمرًا خطيًا إلى لواء "يفتاح" يقول فيه: "يجب طرد سكان اللد على وجه السرعة، ودون النظر إلى السن".

وفي اليوم التالي، عُقدت المفاوضات في بيت كاهن كنيسة سان جورج، بين شماريا غوتمان الحاكم العسكري الذي عُيِّن مؤخرًا لمدينة اللد، والوجهاء العرب في المدينة المحتلة. وقد جرى الاتفاق في هذه المفاوضات، التي اختُتمت قبل ظهر يوم ١٣ تموز ١٩٤٨، على طرد السكان العرب في اللد واللاجئين المقيمين فيها على الفور. وبحلول مساء ذلك اليوم، كان ما يقرب من ثلاثة وخمسين ألف عربي فلسطيني قد غادروا مدينة اللد في طابور طويل، حيث اجتازوا قرية "بن شيمين" واختفوا في الشرق. لقد طمست الحركة الصهيونية مدينة اللد ومحتها من الوجود.

اللد- «الصندوق الأسود» للحركة الصهيونية

تمثل مدينة اللد الصندوق الأسود للحركة الصهيونية. وفي الحقيقة، لم تستطع الحركة الصهيونية أن تتحمل وجود مدينة اللد العربية. فمنذ البداية، ساد تناقض جوهري بين الحركة الصهيونية ومدينة اللد. فإذا كان لهذه الحركة أن تبقى على قيد الوجود، لم يكن لمدينة اللد أن تبقى قائمة. وإذا كان لمدينة اللد أن تبقى موجودة، فلم يكن للحركة الصهيونية وجود معها. وهذا الأمر واضح تمامًا إذا ما أعدنا النظر في أحداث الماضي. فعندما وصل سيغفرايد ليهمان إلى وادي اللد في العام ١٩٢٧، كان يتعين عليه أن يرى أنه إذا كان لدولة يهودية أن تقوم لها قائمة في فلسطين، فكان لا يمكن أن توجد مدينة اللد العربية في مركزها. وكان عليه أن يدرك أن اللد كانت تشكل عقبة تسد الطريق أمام قيام دولة يهودية، وأنه كان من الواجب على الحركة الصهيونية أن تزيلها في يوم من الأيام. ولكن د. ليهمان لم ير ذلك، واختارت الحركة الصهيونية الامتناع عن إدراك هذا الأمر أيضًا. وعلى مدى عقود، نجح اليهود في إخفاء التناقض الذين كان قائمًا بين حركتهم ومدينة اللد وحجبه عن أنفسهم. وتظاهر اليهود، على مدى أربعة وخمسين عامًا، بأنهم هم من يمثل مصنع المستقبل وحقول الزيتون وقرية «بن شيمين» التي تعيش في سلام مع مدينة اللد. وبعد ذلك، وفي غضون ثلاثة أيام من الصيف الكارثي الذي شهده العام ١٩٤٨، لم يعد لمدينة اللد أي وجود.

وقد حاولتُ، بعد عشرين سنة وعندما كنتُ في بدايات عملي كصحافي، أن أفسر الأسرار التي تزخر بها مدينة اللد. فالتقيتُ بقائد اللواء وأمضيت وقتًا طويلًا معه في مكتبه. كما التقيتُ

بالحاكم العسكري وأمضيت أيامًا معه في الكيبوتس الذي كان يسكن فيه. كما أمضيتُ بعض الوقت مع جنود الكتيبة الثالثة وأجريت مقابلة مع الطلبة الذين درسوا في القرية الشبابية وتخرجوا منها. وقبل وقت ليس بالبعيد، بحثت في مجموعة الأشرطة التي كنت قد سجلتها واستمعت إلى ما احتوته عن قصة الموت التي تعرضت لها مدينة اللد.

وُلد مولا كوهين، قائد اللواء، في العام ١٩٢٣ في كوفنا، حيث كان والده يعمل مع د. ليهمان. وقد نشأ كوهين في أسرة اشتراكية في تل أبيب، ولكنه أُرسل وهو يدرس في المدرسة المتوسطة إلى قرية «بن شيمين» الشبابية، حيث كان موضع اهتمام صديق والده القديم. وفي صبيحة أيام السبت، كان ليهمان يدعو كوهين إلى كوخه للاستماع إلى تسجيلات هايدن وموزارت وباخ على الفونوغراف. وفي أيام العطلات، كان كوهين يرافق ليهمان في الزيارات الودية التي كان يقوم بها إلى القرى المجاورة. وفي بعض الأحيان، كان يذهب معه في زيارة أصدقائه في مدينة اللد والمدارس فيها. وقد أحب كوهين اللد، وسوقها ومعاصر زيت الزيتون فيها وبلدتها القديمة. وفي «بن شيمين»، كان كوهين يعمل في حظيرة الأبقار وفي كرم العنب وبيارة البرتقال، كما كان يلعب كرة اليد واكتسب حسًّا أتاح له تذوق الفنون. ومن أكثر الأمور التي أحبها، كان كوهين يحب الموسيقى: الموسيقى الكلاسيكية والموسيقى الشعبية والموسيقى الفولكلورية. وكان من بين أعذب الذكريات القريبة إلى قلبه في «بن شيمين» أولئك المئات من الطلبة الذين كانوا يجلسون في سكون في الفناء الواسع ويستمعون إلى أوركسترا وجوقة موسيقية تغني رائعة باخ «أغنية الفلاح» (Peasant Cantata).

ولكن كوهين كان يعيش في عالم آخر أيضًا. ففي المساء، كان يذهب برفقة أصدقائه إلى الغابة الواقعة خارج القرية الشبابية، حيث كانوا يتدربون على تجميع بندقية إنكليزية وتفكيكها. كما كانوا يتدربون على استخدام البنادق الرشاشة ورمي القنابل. وقد انضم محب الموسيقى، بعدما تخرج من "بن شيمين"، إلى الفصيل الأول في قوة "بالماخ" الضارية، وهي إحدى الوحدات الرئيسية التي كانت تشكل الجيش اليهودي. وفي شتاء العام ١٩٤٢، تسلق كوهين إلى قلعة "مسادا"، وهي الموقع المشهور الذي هاجمه الرومان واستُشهد اليهود فيه. وفي صيف العام ١٩٤٢، تدرب كوهين في النقب على إيقاف زحف الجنود النازيين تحت إمرة رومل باستخدام القنابل الحارقة. ومع مرور الوقت، عُيِّن كوهين قائد سرية، ثم قائد كتيبة. وعندما اندلعت الحرب في نهاية العام ١٩٤٧، تولى كوهين قيادة إحدى وحدات النخبة في الحركة الصهيونية.

هل سبق أن واجه قائد اللواء شخصيته التي كان عليها حينما كان أحد مريدي ليهمان مع شخصية المحارب التي تحول إليها؟ لم يكن لدى العجوز الحزين الذي بلغ من العمر تسعة وستين عامًا وتحدث إلي أي إجابات حقيقية. فقد روى لي حكاية عن القتال في الشمال خلال الأشهر الأولى من العام ١٩٤٨: احتلال طبريا واحتلال صفد وتطهير منطقة طبريا– صفد. كما روى لي الحكاية عن مدينة اللد. فقد كان إسحق تبنكين، وهو أحد الزعماء الأيديولوجيين الاشتراكيين في الحركة الصهيونية "يؤيد طرد العرب". فكما قال كوهين، كان تبنكين "واضحًا تمام الوضوح". "وكانت التعليمات العامة التي أصدرها إلى مقر قيادة البالماخ تقضي بأن الحرب تقدم فرصة لا تسنح إلا مرة واحدة لإيجاد حل لـ'مشكلة العرب'". وكان كوهين يتحدث بتؤدة وهو يحكي لي كيف احتل القرى وأزال مدينة اللد من الوجود. لقد أصدر الأمر بإخلاء المدينة، وأرسل سكانها وأجبرهم على الرحيل بعيدًا عن منازلهم في طابور طويل أثار الغبار في مسيرته نحو الشرق.

وقد عُيِّن شماريا غوتمان حاكمًا عسكريًا على مدينة اللد بعد أن احتلها الجيش الإسرائيلي. وكان التوجه الذي اعتمده غوتمان في التعامل مع الحركة الصهيونية يلفه الغموض على الرغم من أنه كان علمانيًا وعقلانيًا. وكان غوتمان، الذي ابتدع روح "المسادا" وتحول في مرحلة لاحقة من حياته إلى أحد أبرز علماء الآثار في إسرائيل، ينظر إلى الحركة الثورية باعتبارها عرضًا شجاعًا ومقدامًا يدل على مدى الحيوية التي يتمتع بها شعب على شفير الانقراض. فقد رأى هذه الحركة بمثابة عمل ملهم أقدمت عليه أمة مضطهدة لم تنتظر المسيح حتى يظهر، وإنما أخذت على عاتقها تنفيذ المهمة التي جاء بها. وكان غوتمان يؤمن بأن الحركة الصهيونية أحرزت نجاحًا باهرًا على مدى خمسين عامًا. ففي كل مرة تراجعت فيها موجة من موجات المهاجرين، ظهرت موجة أخرى. ولكن في حقبة الأربعينيات من القرن الماضي، فرضت المسألة العربية، التي كانت موجودة على الدوام، علامة استفهام على المستقبل. ففي جميع أنحاء البلاد، اتسمت القرى العربية بقدر أكبر من الحداثة، وباتت المدن العربية تتمتع بدرجة أكبر من الرخاء والازدهار. كما شكلت الطبقة المثقفة العربية الجديدة وعيًا قوميًا أكبر وشرعت في حمل هوية عربية– فلسطينية متميزة – وهو ما شكّل من وجهة نظر غوتمان– تهديدًا للحركة الصهيونية. فلم تعد الطريقة التي اعتمدتها هذه الحركة في التعامل مع هذه الأمور ذات فائدة. ولم يعد هناك من خيار لشراء الأراضي بصورة تدريجية، وجلب المهاجرين الذين يتمتعون بالتدريب الجيد إلى

صورة حديثة للمسجد ولكنيسة سان جورج في مدينة اللد.

فلسطين وبناء الأمة اليهودية. بل كانت هناك حاجة لنوع مختلف من العمل. وفي هذا الإطار، قال لي غوتمان إن "الحرب لم تكن إنسانية، ولكنها تسمح للمرء بأن يحقق ما لا يستطيع تحقيقه في أوقات السلم. فالحرب تستطيع أن تحل المشاكل التي لم يكن من الممكن حلها في أيام السلم".

وفي الوقت الذي لم يزل فيه د. ليهمان يعلّم مولا كوهين حب مدينة اللد، كان غوتمان يعي التحدي الذي تشكّله هذه المدينة ويدركه تمامًا. كما كان على وعي كامل بالمعضلات الإستراتيجية والأخلاقية التي يواجهها، وذلك لأنه توقع نشوب الحرب بين اليهود والفلسطينيين قبل وقت ليس بالقليل من اندلاعها. فقد كان يعرف بأن المهمة الملقاة على عاتق جيله تتمثل في تخليص البلاد من العرب، كما كان على علم بمدى بشاعة هذا التصرف في الوقت نفسه. ولذلك، بحث غوتمان عن أساليب ماكرة تكفل له إنجاز هذا الأمر. فهو لم يكن يريد قتل العرب أو طردهم، بل كان يريد حثهم على الرحيل.

وقد جرى تعيين غوتمان في منصب الحاكم العسكري على اللد بمحض المصادفة. ففي يوم ١١ تموز ١٩٤٨، كان غوتمان يبحث عن يغئال ألون للتشاور معه بشأن تنفيذ مهمة استخباراتية، ووجده أخيراً برفقة إسحق رابين في قرية دانيال المحتلة والمهجّرة.

وبينما كانوا يشاهدون القوات وهي تقتحم مدينة اللد وتغزوها، أخبر ألون غوتمان بأنه سوف يعيَّن حاكمًا عسكريًا عليها بعدما يتم الاستيلاء عليها. وسأل غوتمان ألون "ما الذي ينبغي لي أن أفعله بالعرب؟ هل لديك أي شيء تقوله لي؟" فأجاب ألون "ليس عندي شيء أقوله لك. فسوف ترى كيف تسير الأمور، وسوف تتصرف حسب سيرها. افعل ما يجب عليك فعله".

وصل غوتمان إلى مدينة اللد مع غروب الشمس. وكان الجنود قد عمموا على سكان المدينة بأنهم سوف يطلقون النار على أي واحد منهم يتواجد خارج بيته بعدما يحل الليل. ورأى غوتمان الآلاف يسيرون في صمت إلى الجامع الكبير. ومع هبوط الظلام، امتلأ الجامع ذي السقف العالي عن آخره، ولم يكن هناك من طعام ولا ماء ولا هواء ولا فسحة للجلوس أو الاستلقاء. وفي غضون ساعات، كان من الممكن أن يختنق العديد من المرضى والأطفال.

وعند منتصف الليل، أطلق الحاكم العسكري سراح كبار السن، ثم أطلق سراح أصحاب مطحنة الدقيق ومحل الدقيق لكي يتمكنوا من تزويد السكان بحاجتهم منه، كما أفرج عن أصحاب الأفران لكي يخبزوا أرغفة الخبز. وفي اليوم التالي، أطلق غوتمان سراح الأطفال. ومع ذلك، فلم يزل الجامع الكبير مكتظًا بالناس. وبعدما فرضت الكتيبة الثالثة سيطرتها التامة على المدينة

وعاد غوتمان إلى الوجهاء العرب الذين كانوا مجتمعين في بيت القسيس المذكور، واستجمع قواه وأخبرهم بأن حربًا شاملة سوف تندلع في مدينة اللد بسبب المطار الدولي. وتساءل الرجال الذين انتابهم الذعر عما سيحل بهم إن هم أرادوا الرحيل. فرد الحاكم العسكري بأنه يجب عليه أن يفكر في هذا الأمر. وقد جال في خاطر الحاكم العسكري، وهو ينتقل إلى غرفة أخرى، كم ستكون الأمور سهلة ويسيرة لو لم يكن للعرب وجود في اللد. ومع ذلك، فقد قرر بأنه لن يصدر الأمر للعرب بالرحيل مهما كانت الظروف. وأخبر الرجال، بعدما عاد إليهم، بأنه يريد أن يفكر أكثر في هذا الموضوع.

بكاملها في الصباح الباكر من ذلك اليوم، أُجبر عدد أكبر من الرجال على التوجه إلى الجامع، وكانوا في طريقهم إليه يرفعون أيديهم إلى الأعلى وكان الرعب الذي حل بهم يغشى عيونهم.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، اندلع إطلاق النار في الوقت الذي كان الحاكم العسكري متواجدًا فيه في بيت القسيس الذي كان يرعى كنيسة سان جورج ويتفاوض مع الوجهاء العرب في مدينة اللد. وفي هذه الأثناء، نظر أحد الضباط الحاضرين إلى الحكم العسكري بنظرة تنم عن السخرية، وسأله: "ماذا تقول أيها الحاكم؟ ما هي أوامرك؟" فأدرك غوتمان أنه إن لم يتصرف على وجه السرعة وبحزم، فسوف تخرج الأمور عن زمام سيطرته. ولذلك، أصدر أوامره بإطلاق النار على أي بيت تطلَق منه النار، وعلى النوافذ وباتجاه أي شخص يخرق حظر التجول. وقد وصف غوتمان الضجة الرهيبة التي تلت هذه الحادثة على أنها أسوأ نصف ساعة عاشها في حياته. إطلاق النار الذي لم يكن ليتوقف. غضب الله. والصمت الجميل عندما توقف إطلاق النار في نهاية المطاف. ولكن ذاعت الأخبار حول ما حدث في المسجد الصغير عقب ذلك. وأمر الحاكم العسكري رجاله بدفن جثث القتلى.

وعاد غوتمان إلى الوجهاء العرب الذين كانوا مجتمعين في بيت القسيس المذكور، واستجمع قواه وأخبرهم بأن حربًا شاملة سوف تندلع في مدينة اللد بسبب المطار الدولي. وتساءل الرجال الذين انتابهم الذعر عما سيحل بهم إن هم أرادوا الرحيل. فرد الحاكم العسكري بأنه يجب عليه أن يفكر في هذا الأمر. وقد جال في خاطر الحاكم العسكري، وهو ينتقل إلى غرفة أخرى، كم ستكون الأمور سهلة ويسيرة لو لم يكن للعرب وجود في اللد. ومع ذلك، فقد قرر بأنه لن يصدر الأمر للعرب بالرحيل مهما كانت الظروف. وأخبر الرجال، بعدما عاد إليهم، بأنه يريد أن يفكر أكثر في هذا الموضوع.

وخلال الاجتماع الثالث، كان الوجهاء العرب في حالة من الذعر، وقالوا بأنهم سيغادرون مدينة اللد، شريطة الإفراج عن جميع الأشخاص المحتجزين في الجامع الكبير. وللمرة الثالثة، ترك غوتمان هذا الطلب للتفكير فيه. وكان الحاكم العسكري برفقة ضابطين شابين عندما رجع إلى هؤلاء الوجهاء، حيث طلب منهما أن يشهدا المحادثة المصيرية التي ستدور بينه وبينهم:

الوجهاء: ما هو مصير السجناء المحتجزين في الجامع؟

غوتمان: سوف نفعل بالسجناء ما كنتم ستفعلونه بنا لو كنتم قد سجنتمونا.

الوجهاء: لا، لا، نرجوك ألا تفعل هذا.

غوتمان: لماذا، ما الذي قلته؟ كل ما قلته هو أننا سنفعل بهم ما كنتم ستفعلونه بنا.

الوجهاء: نرجوك ألا تفعل ذلك، أيها الحاكم. نتوسل إليك ألا تفعل مثل هذا الأمر.

غوتمان: لا، لن نفعل ذلك. فبعد عشر دقائق من الآن، سوف يكون السجناء أحراراً ليغادروا الجامع ويغادروا منازلهم ويغادروا اللد معكم جميعًا ومع جميع سكان اللد.

الأعيان، شكراً لك، أيها الحاكم. بارك الله فيك.

لقد شعر غوتمان بأنه حقق هدفه. فلم يكن قد خطط لهذا الأمر على هذا النحو من قبل، ولكن الاحتلال والمجزرة والضغط النفسي الذي مارسه على هؤلاء الوجهاء أتى ثماره المرجوة. فهو لم يصدر الأمر لسكان اللد بالرحيل عن مدينتهم بعد ثمان وأربعين ساعة من الجحيم. لقد طلب وجهاء المدينة أنفسهم الرحيل عنها في ظل التهديد غير المباشر بارتكاب مجزرة بحقهم.

وعبر غوتمان الشارع إلى الجامع الكبير وأخبر السجناء بأنهم أحرار وأنه يمكنهم المغادرة. وقال «بناءً على القرار الذي اتخذه

اللد: طابور اللجوء الطويل.

وجهاء مدينة اللد، يجب على جميع سكان اللد أن يغادروها في غضون ساعة ونصف». وكان يُحظر على سكان المدينة حمل السلاح أو السفر بالسيارات والمركبات. وفي المقابل، كان باستطاعة هؤلاء المواطنين أن يأخذوا أي ممتلكات أخرى شريطة أن يرحلوا عن اللد على الفور.

وخرج آلاف الرجال من الجامع الكبير مطأطئي الرؤوس. ولم يتذمر أحد منهم أو يلعن ما آل إليه حاله. وبإذعان كامل، خرجت جموع الرجال من الجامع وتفرقوا شذر مذر. وفي هذه الأثناء، اعتلى الحاكم العسكري مئذنة الجامع، وشاهد الفوضى التي عمّت المدينة من الأعلى، حيث كان الناس يحملون أي شيء تطاله أيديهم من الخبز والخضار والتمور وثمار التين، وأكياس الدقيق والسكر والقمح والشعير، وأطقم الفضة والنحاس والمجوهرات والبطانيات والفرشات. كما حملوا الحقائب المملوءة عن آخرها والرزم التي صنعوها من الشراشف ووجوه الوسائد. وحمّلوا كل شيء أخذوه معهم على العربات التي تجرها الخيول والحمير والبغال.

ونزل غوتمان عن المئذنة ومشى باتجاه الناحية الشرقية من المدينة، ونظر إلى «بن شيمين». وقد انتظمت مسيرة المدنيين في طابور طويل يتألف من آلاف الناس ويشبه الرواية التي جاءت في الكتاب المقدس. وتساءل غوتمان، وهو يشاهد وجوه الناس وهم يسيرون إلى منفاهم، إن كان بين هؤلاء «إرميا» لكي ينتحب على المصيبة التي حلت بهم وعلى الذل والهوان الذي لحق بهم. وشعر، فجأة، برغبة ملحة بالانضمام إليهم. ولفترة ليست بالقصيرة، تمنى غوتمان الذي تصرف كما لو كان «نبوخذ نصّر» لو كان «إرميا» الذين ينقذ هؤلاء الناس.

كما شاهد مولا كوهين، الذي كان يقف في تلك اللحظة بجانب سيارة القيادة، سكان اللد وهم يرحلون عنها، ويحملون على ظهورهم أكياسًا ثقيلة مصنوعة من البطانيات والشراشف. وشيئًا فشيئًا، أخذ هؤلاء يطرحون الأكياس عن كاهلهم، حيث لم يستطيعوا أن يحملوها أكثر من ذلك. وانهار كبار السن من الرجال والنساء الذين عانوا من العطش القاتل في الحر القائظ. وكما كانت عليه حال اليهود القدماء، نُفي سكان اللد من مدينتهم.

وقد شعر قائد اللواء، وهو يحدق بالطابور، بالتعاطف، وليس بالذنب. فهل كان هذا الإخلاء نتيجة لخطة مبيّتة بطرد العرب من ديارهم، أم كان نتيجة لأمر صدر بطردهم منها؟ لا، كانت إجابة كوهين. «ففي شهر تموز ١٩٤٨، كان دافيد بن- غوريون قد أصبح رئيس وزراء دولة تتمتع بالسيادة. وكان الجنود الذين هاجموا مدينة اللد جزءًا من قوات الدفاع الإسرائيلية التي شُكِّلت حديثًا. وقد أمست المحرقة شيئًا من الماضي. ولم يكن في وسع بن- غوريون أن يصدر الأمر لقوات الدفاع الإسرائيلية بالتخلص من العرب، ولم يكن ذلك في وسع ألون أيضًا. فنحن لا نطرد الناس من ديارهم بصفتنا دولة. ومن جانب آخر، كان بن- غوريون وألون على علم بأنه كان من المستحيل السماح ببقاء اللد العربية بالقرب من المطار الدولي، وعلى مسافة ليست ببعيدة عن تل أبيب. فلو فعلنا ذلك، لم يكن من الممكن أن نحرز النصر ولم يكن من الممكن أن تقوم للدولة قائمة. لقد تحدث بن- غوريون وألون في بعض الأشياء، ولكن لم تكن هناك أي أوامر مكتوبة».

وفضلًا عما تقدم، لم يصدر ألون أي أوامر صريحة إلى كوهين. ولكن التدريب الذي تلقاه قائد اللواء في قوة «بالماخ» الضارية جعل الأوامر أمرًا زائدًا لا حاجة له. فقد كان يعرف ما يجب عليه أن يفعله دون الحاجة إلى إصدار أمر له. ومع ذلك، فقد أُلقي في روع كوهين عندما طلبتُ منه أن يعود بذاكرته إلى ذلك المكان وإلى تلك اللحظة وأن يسترجع التجربة الشخصية التي عاشها خلالها. وقد غادر ألون ورابين الموقع إلى جبهة أخرى. وبذلك، انتقلت المسؤولية عن الخروج من مدينة اللد إليه وإلى الملازم الذي يخدم تحت إمرته وإلى الحاكم العسكري. فهؤلاء هم من واجهوا المخاطر التي تولدت عن تجدد القتال في الشرق والفوضى التي سببتها أعمال النهب الواسعة التي نفذها الإسرائيليون في المدينة. وكان عليهم كذلك أن يتابعوا دفن موتاهم وموتى العرب. والمسيرة: الطابور الرهيب الذي يسير فيه عشرات الآلاف الذين رُحِّلوا عن المدينة.

وقال كوهين: «إن الضباط هم بشر، كذلك. وأنت كإنسان، فأنت تواجه شرخًا عميقًا. فمن جانب، هناك الإرث النبيل الذي تركته الحركة الشبابية، والقرية الشبابية ود. ليهمان. ومن جانب آخر، هناك الحقيقة القاسية التي خلّفتها مدينة اللد». لقد تدرب على مدى سنوات لمثل هذا اليوم. وقيل له إن الحرب قادمة وإنه يتعين على العرب الرحيل. «ومع ذلك، ترى نفسك وقد اعترتك الصدمة. ففي اللد، تصل الحرب إلى أقصى حد في قساوتها. القتل، والنهب، ومشاعر الغضب والانتقام. ثم مسيرة الطابور. وعلى الرغم من أنك قوي ومدرب على نحو جيد وتتمتع بالجَلَد، فأنت تتعرض لنوع ما من الانهيار النفسي. وتشعر بأن التعليم الإنساني الذي تلقيته يتداعى وينهار رأسًا على عقب. وترى الجنود اليهود، وترى العرب الذين يسيرون في الطابور، وتشعر بالثقل وبالحزن العميق. تشعر بأنك تواجه شيئًا هائلًا لا تستطيع أن تتعامل معه، وبأنك لا تستطيع حتى أن تسبر غوره أو تدركه».

ويتذكر عثمان أبو حماد، أحد سكان مدينة اللد، ذلك الطابور أيضًا. وكان جده يعمل مع اليهود في مصنع الصابون، كما قدم المساعدة لهم في زراعة أشجار الزيتون. وكان والده الذي كان يزود القرية الشبابية بالخضروات، صديقًا للدكتور ليهمان وكان يرافقه عندما كان يوزع لقاحات الكوليرا في مدينة اللد. وكثيرًا ما كان يزور «بن شيمين» عندما كان طفلًا، وكان يحب حظيرة الأبقار الحديثة وبركة السباحة والفتيات اللاتي كن يرتدين الشورتات ذات اللون الكاكي وأرجلهن المسفوعات من أشعة الشمس. ولكن بحلول يوم ١١ تموز ١٩٤٨، ظهر الجنود اليهود فجأة في الحي. وكانت السماعات المركبة على الجيبات تنادي جميع الرجال وتأمرهم بالتوجه إلى الجامع الكبير. وكان الجو حارًا، وكان حارًا داخل الجامع الذي كان يغص بالرجال كذلك. وكان عثمان، الذي كان يبلغ ثمانية عشر عامًا من العمر آنذاك، يشعر بالرعب. وكان يبكي وبال في ملابسه. وبعد مرور ست وثلاثين ساعة كالكابوس، سُمح لعثمان ووالده بالخروج من الجامع مع آلاف الرجال الآخرين.

وسمعت عائلة أبو حماد أحدًا يطرق على باب المنزل بعد التقاء أفرادها بفترة وجيزة. وقف جنديان على الباب وأخذا يصرخان: «أسرعوا، أسرعوا. احزموا أمتعتكم وارحلوا». عندها أخرج الوالد رسالة كُتبت باللغة العبرية من جيبه، وتقول هذه الرسالة بأن د. ليهمان يكفل هذا العربي النزيه، ويطلب فيها ألا يلحق أي أذى بهذا الرجل الذي كان صديقًا لـ «بن شيمين». ولكن أحد هذين الجنديين الذي فاق الآخر في سلاطته وضع فوهة بندقيته في صدر والد عثمان وقال له: «إذا لم تذهب الآن، فسوف أطلق النار».

وصرخت والدة عثمان، ولفت الصدمة والده. وسارعت عائلة أبو حماد، وهي تحت فوهات بنادق الجنود، إلى جمع ما تيسر لها من أشياء – من الدقيق والسكر والأرز والمجوهرات والفراش – وحمّلوها على عربة يجرها حصان ورحلوا.

كان الطريق ضيقًا، ولم يكن الازدحام محتملًا. وكان الأطفال يصيحون والنساء يصرخن والرجال يبكون. ولم يكن لديهم ماء للشرب. وكثيرًا ما كانت أسرة تخرج عن الطابور وتقف على جانب الطريق لكي تدفن رضيعها الذي لم يتحمل حرارة الصيف اللاهبة، أو وداع جدة انهارت من التعب. وازداد الوضع سوءًا بعد برهة، حيث تخلت امرأة عن رضيعها الذي لم يتوقف عن العويل والصراخ وتركته تحت شجرة. كما هجرت إحدى قريبات عثمان

رضيعها الذي يبلغ من العمر أسبوعًا واحدًا، بعدما لم يعد في مقدورها أن تتحمل سماعه وهو يئن من ألم الجوع. وقال والد عثمان لقريبته أن ترجع وتحضر طفلها، ولكن الوالد نفسه بدا أنه كان يفقد صوابه، حيث صار يلعن اليهود ويلعن العرب ويشتم الذات الإلهية وهو يسير وراء العربة.

«إسرائيل لا تستطيع أن تحل مسألة اللد»

أقود سيارتي إلى مدينة اللد. هذا هو شهر تموز، والحرارة لاهبة مثلما كانت عليه في شهر تموز ١٩٤٨. ويلف الضباب الأصفر الثقيل وادي اللد. وقد جرى ترميم المسجد الصغير مؤخرًا، ولكنه مغلق الآن. أما الجامع الكبير فهو مفتوح. وأدخل من المدخل الحجري الذي كان سكان اللد يدخلون منه، وأمشي عبر الفناء ذي الشكل المربع الذي تجمعوا فيه، وتحت أقواس القبة العالية التي وقفوا تحتها لمدة ست وثلاثين ساعة. وتقع كنيسة سان جورج العريقة على بعد أمتار قليلة. كما يقع في الزقاق المقابل بيت القسيس الذي اجتمع فيه الحاكم العسكري غوتمان مع وجهاء مدينة اللد وعقد المحادثات معهم.

وقد تعرضت البيوت الحجرية ومعاصر زيت الزيتون وأزقة البلدة القديمة للهدم خلال الخمسينيات من القرن الماضي. ومع ذلك، فما يزال المرء يشعر في ذلك الجزء الذي تبلغ مساحته كيلومترًا مربعًا واحدًا، والذي كان يحتضن البلدة القديمة في اللد في يوم من الأيام الغابرة، بأن شيئًا خاطئًا قد حصل هنا. فأنقاضٌ تثير الفضول هنا، وأنقاضٌ ليس من الممكن تفسيرها هناك. ومما لا شك فيه أنه ما يزال هناك جرح غائر لما يندمل بعدُ في وسط الأحياء الفقيرة وفي السوق المهلهل وفي المحلات الرخيصة. وعلى خلاف المدن الأخرى التي طغت الحداثة الإسرائيلية فيها على سمات فلسطين العتيقة، فما تزال فلسطين هنا تجعلك تشعر بها وتحس بها.

هل أغسل يدي من الحركة الصهيونية؟ هل أدير ظهري للحركة القومية اليهودية التي دمرت مدينة اللد؟ لا. فكما هي حال قائد اللواء، فأنا أواجه شيئًا هائلًا لا أقوى على التعاطي معه. ومثل الحاكم العسكري، فأنا أرى واقعًا لا أستطيع أن أحتويه. عندما يفتح المرء الصندوق الأسود، فهو يفهم أنه في الوقت الذي ارتُكبت فيه مجزرة المسجد بسبب سوء فهم وقع نتيجة لسلسلة مأساوية من الأحداث العرضية، فإن احتلال اللد وطرد سكانها لم يكن حادثًا عرضيًا. فقد شكلت هذه الأحداث مرحلة حاسمة من الثورة الصهيونية، كما أرست هذه الوقائع القاعدة التي قامت الدولة اليهودية عليها. إن اللد تشكل جزءًا أصيلًا لا يتجزأ من القصة. وعندما أحاول أن أتوخى الصدق في سردها، فإني أرى أن الاختيار قاس: إما أن أرفض الصهيونية بسبب اللد وإما أن أتقبل الصهيونيةَ على الرغم مما حصل في اللد.

إن شيئًا واحدًا واضح أمامي: لقد كان مولا كوهين وشماريا غوتمان على حق عندما عبّرا عن غضبهما تجاه النقاد الذين ظهروا في السنوات الأخيرة وأدانوا ما فعلاه في مدينة اللد، ولكنهم استمتعوا بما أثمره ما قاما به فيها في الوقت نفسه. أما أنا فلن أكيل اللعنات لقائد الوحدة والحاكم العسكري وجنود الكتيبة الثالثة. بل على العكس من ذلك. ولو تطلب الأمر، فسوف أقف إلى جانب من صُبَّت اللعنات عليهم، لأنني أعلم أنه لولاهم لما وُلدت دولة إسرائيل وخرجت إلى حيز الوجود. ولولاهم لما وُلدت أنا نفسي. فلقد نفذوا العمل القذر الذي يمكّن شعبي وأمتي وابنتي وأبنائي ويمكُنني أنا من العيش والحياة.

ولكننا إذا ما أمعنّا النظر فيما حل بمدينة اللد، أتساءل ما إذا كان السلام ممكنًا أم لا. إن موقفنا واضح: لقد جئنا إلى وادي اللد وكان علينا أن نستولي على وادي اللد. فليس هناك من وطن آخر لنا، ولم يكن ثمة طريقة أخرى أمامنا. وفي المقابل، فإن الموقف العربي، الموقف الفلسطيني، يُعتبر على ذات القدر من الوضوح: فهم لا يستطيعون نسيان اللد وليس في مقدورهم أن يسامحونا عما فعلناه باللد. وللمرء أن يفترض بأن الاحتلال الذي وقع في العام ١٩٦٧ ليس هو ما يشكل جوهر الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني، وإنما المأساة التي حلت بالفلسطينيين في العام ١٩٤٨. فليست المستوطنات هي ما يفرض العقبات أمام تحقيق السلام فحسب، وإنما شوق الفلسطينيين وتطلعهم إلى العودة، بطريقة أو بأخرى، إلى اللد وإلى عشرات البلدات والقرى التي تلاشت وذهبت أدراج الرياح في غضون سنة كارثية واحدة. ولكن ليس بإمكان الدولة اليهودية أن تسمح لهم بالعودة. فإسرائيل لها الحق في الحياة. وإذا كان لإسرائيل أن تحيا هذه الحياة، فهي لا تستطيع أن تحل مسألة اللد. فما نحتاجه لتحقيق السلام الآن بين الشعبين اللذين يعيشان على هذه الأرض قد يفوق ما يستطيع البشر أن يستحضروه. وعلى النقيض من كل اعتقاد كان سيغفرايد ليهمان يراه، فإن قرية «بن شيمين» ومدينة اللد لا تستطيعان النظر إحداهما للأخرى أو تبادل الاعتراف والدخول في سلام بينهما. وهذا هو السبب الذي يقف وراء استمرار المأساة الإسرائيلية- الفلسطينية - جيلًا بعد جيل، وحربًا بعد حرب. وفي الوقت الذي تغرق فيه سورية في الدماء وتخضع مصر لقبضة حكم العسكر المستبدين، ومع القدر الهائل من الغموض والضبابية التي تلف المنطقة، فمن الصعوبة أن نتصور توفر

الفرص المواتية لوضع حد لإنهاء الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني في المستقبل المنظور. ويبدو أن أقصى ما يمكن للمرء أن يأمله لا يتجاوز التوصل إلى اتفاقية انتقالية أو مبادرة أحادية الجانب من شأنها إنهاء الاحتلال وتقسيم الأرض حتى لو لم يفضِ هذا الأمر إلى اجتراح تسوية تاريخية مشهودة.

لقد أضحت الحقول التي كان يملكها العرب الذين رُحِّلوا عن اللد قبل ردح طويل من الزمن الآن حقول عباد الشمس الذابلة في «غينتون» و«بن شيمين»، وهما مزرعتان إسرائيليتان. وما تزال القرية الشبابية التي أقامها ليهمان قائمة في مكانها، ولكن بعد اندلاع حرب العام ١٩٤٨ وبعد وفاة الدكتور ليهمان بعدها بعشر سنوات، باتت روح هذه القرية تخبو وتضيع شيئًا فشيئًا. وتقف المباني الغربية التي كانت تضم مؤسسة تعليمية عامة الآن على منحدر سهل. وما يزال الفناء ومجموعة واحدة من المنازل الطويلة ذات السقوف الحمراء، والتي شُيدت لإيواء الأطفال الأيتام الذين قدِموا من أوروبا، صامدة وتمثل شاهدًا على ما كانت عليه قرية «بن شيمين» مرة وما كانت تصبو إلى التحول إليه. ويجري العمل في هذه الآونة على تنفيذ مشروع للحفاظ على الفناء باعتباره موقعًا من مواقع التراث الوطني.

أجولُ بنظري على وادي اللد من أعلى مكان في قرية «بن شيمين» الشبابية، وأرى مدينة اللد والمئذنة الطويلة لجامعها الكبير. وأرى حقول الزيتون التي اختفت والقرية الشبابية التي أقامها ليهمان التي اختفت أيضًا. وأفكرُ في المأساة التي وقعت هنا. فبعد خمسة وأربعين عامًا من قدوم الحركة الصهيونية إلى وادي اللد وعلى أثر المجازر التي اقتُرفت في أوروبا ضد السامية، خلقت هذه الحركة كارثة إنسانية في وادي اللد. وبعد خمسة وأربعين عامًا من قدومها إلى هذا الوادي باسم المشردين، أرسلت الحركة الصهيونية طابورًا من المشردين الذين لم يعد لهم مأوى يؤويهم من وادي اللد. وأنا أرى الآن طابور أبناء اللد يسيرون باتجاه الشرق بقلوبهم الكسيرة وفي لجة الضباب وعبر الحقول الجافة البنية. لقد مرت سنوات طوال، وما يزال هذا الطابور يسير باتجاه الشرق. إن طوابير من قبيل الطابور الذي خرج من اللد لا تتوقف عن المسير أبدًا.

[مترجم عن الانكليزية. ترجمة ياسين السيد]